جنون الهيمنة والسّقوط الأخلاقيّ: الثّنائيّة المدمّرة في الغرب

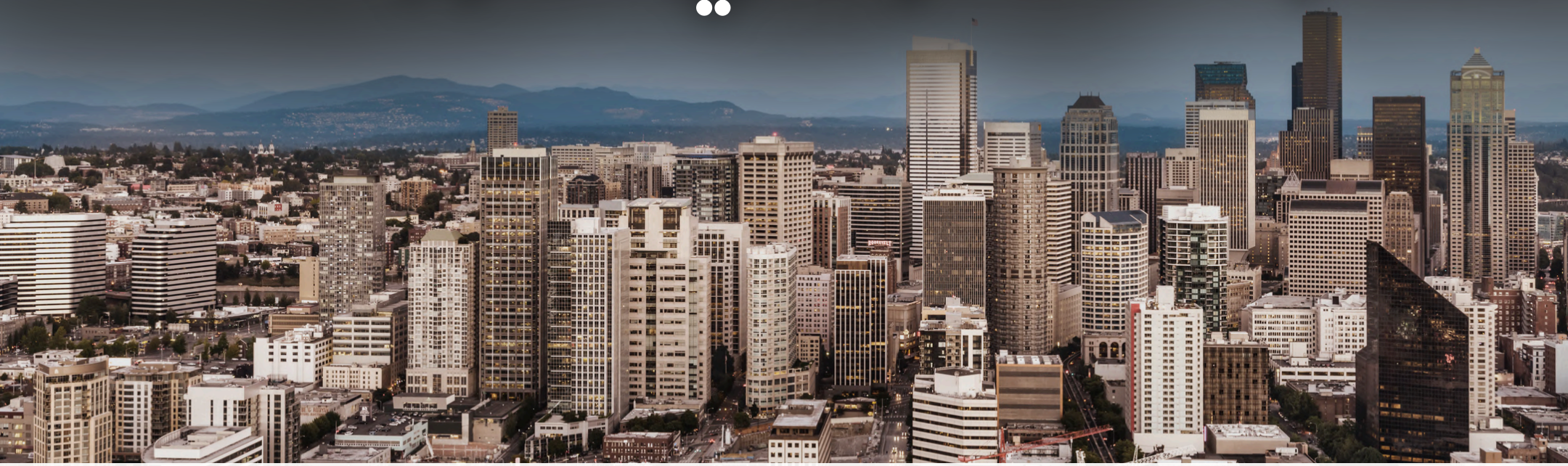

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

من المستغرب في عالمنا المعاصر أنْ يكمن في أعماق كلّ حضارة بذور فنائها، وفي قلب كلّ قوّة تنبت شوكة انحطاطها ولعنتها الممتدة، فتصبح سنّة مقضيّة للأمم والحضارات التي ترى في القوة غاية في ذاتها لا وسيلة لتحقيق العدل والخير للإنسانيّة، فهذه المعضلة ترتبط بوجود البشريّة منذ الأزل، ولكنّها تتجدّد في كلّ عصر بأشكال أكثر تعقيداً وأعمق خطراً؛ لكونها ابتعدت عن طريق القيم والأخلاق وتنصّلت من المبادئ الإنسانيّة...

فالحضارة الغربيّة المعاصرة تقف اليوم أمام مرآة التاريخ، لتواجه انعكاساً مؤلماً لصورتها، فقد سقطت إمبراطوريّتها في براثن الهيمنة الخارجيّة الشكليّة، والسّقوط الروحيّ والإنهاك الداخليّ، فعلى الرّغم من كونها تحمل راية الحريّة والعدالة - بمعاييرها الخاصّة بها - في يد، فهي تحمل سيف الهيمنة والاستغلال في اليد الأخرى، وهذا التّناقض الواضح لا يعدّ مجرّد خطأ اجتماعيّ أو انحراف مؤقت، إنّما هو تجسيد لأزمة روحيّة عميقة تضرب في جذور الحضارة الإنسانيّة ذاتها....

ففي الوقت الذي تراجعت الحضارة الإسلاميّة عن قيادة المشهد الحضاريّ، انفرد الإنسان الغربيّ بتأسيس حضارة تعدّ - في نظر الكثيرين – متقدّمة من النّاحيّة التّقنية، ولكنّنا نجده في المقابل قد فقد شيئاً جوهرياً ألا وهو الرّوح التي تمنح الحياة معناها، فنراه قد انسلخ عن أسس التواصل الإنسانيّ والتعامل الأخلاقيّ، فبات يتساءل عن معنى هذه الحياة التي يحياها دون بوصلة توجّه إنسانيّته، فهو يقارع فراغاً روحياً يغرقه في صمته المطبق الخالي من أيّ معانٍ إنسانيّة يحيا لأجلها، وهذا ما تجسّده مؤشّرات الدول الغربيّة من ارتفاع في نسب جرائم القتل والنهب، وحالات الانتحار، وارتفاع مستويات الاكتئاب، وانتشار حالات الابتزاز وما يصاحبها من إنحرافات أخلاقيّة وانهيار في الروابط المجتمعيّة، وفقدان الشعور بالأمن والأمان...

فهذا الفراغ الروحي ليس نتيجة عرضية، بل هو ثمرة طبيعيّة لفلسفة حياة تقدّس المادّة على حساب القيم والأخلاق، والقوّة على حساب الحكمة، والهيمنة على حساب التعايش مع الآخر، فيصبح الإنسان بتلك المعايير مجرّد آلة في نظام إنتاج ضخم، فتُقاس قيمته بما ينتجه لا بما هو عليه كإنسان، ممّا من شأنه أنْ يقتل شيئاً عميقاً في جوهره، ويسقطه في دوّامة تيه لهويّته، وهذا التيه في الهويّة يجعل الإنسان أسيراً للحظة

وعبداً لوقت، وفاقداً لبعد الرؤية التي تجعل من حياته رحلة ذات معنى لا مجرّد تراكم للأحداث العابرة، فتراه يتقلّب في عوالم تأخذه يمنة ويسرة دونما ثوابت، وهذا على عكس ما يبني هويّات الأمم تماماً .....

فالهويّة الحقيقيّة للأمّة، لا تُبنى على القوّة الماديّة أو التّفوّق التّقنيّ، إنّما على منظومة قيم راسخة ومعنى سامٍ للوجود، وللأسف وفي خضّم سعي الحضارات المحموم نحو الهيمنة وفرض القوّة، فقد فقدت البوصلة الأخلاقيّة لها، وأصبحت هويّتها مرنة قابلة للتشكيل وفقاً للمصالح، ومتغيّرة وفقاً للظّروف....

فقد أصبحت الهيمنة في عصرنا تأخذ موقع ألوهيّة مقدّسة، يسعى لها الجميع باستماتة، وغدت مرتبطة بادّعاء التّفوّق المطلق والحقّ في تقرير مصائر الآخرين، وهذا الضّرب من السّعار الجنونيّ ليس بالأمر الجديد على التاريخ البشريّ، فقد رأيناه أوّل ما رأيناه في قول فرعون: " أنا ربكم الأعلى"، وفي تحدّي النّمرود لإبراهيم عليه السّلام، وفي كلّ طاغية عبر التاريخ ظنّ أنّ القوّة تمنحه الحقّ في العلو على الخلق والطغيان والظّلم، وحتّى عصرنا الحالي لم يخلُ من وجود هكذا طغاة عتاة، فها هم قادة الكيان الإسرائيليّ الغاشم يعيثون فساداً في جسد الأمّة العربيّة دون حياء أو خجل....

ففي هذا السياق المأساويّ، تتجلّى وحشيّة الهيمنة الغربية بأبشع صورها في التّصريحات البغيضة التي صدرت مؤخراً من بعض القادة الغربيين، والتي تحثّ بلا حياء على تهجير سكان قطاع غزة قسراً من أرضهم التاريخية، فهذه التصريحات ليست مجرّد كلمات عابرة، إنّما هي تجسيد صارخ لمنطق الإبادة والتطهير العرقي الذي تمارسه القوى الاستعمارية عبر التاريخ، فهي ترسيخ لفكرة أنّ "الآخر" عائق يجب إزالته لتحقيق المشروع الاستعماري.

فهذا المكر الشيطاني والتخطيط الجهنميّ لا يخفى على اللّٰه سبحانه وتعالى، الذي يقول في محكم كتابه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، فالتاريخ يعيد نفسه، وما يحدث اليوم في غزّة هو ذات المؤامرة التي حيكت ضدّ الرسول الكريم وأصحابه، لكنّ اللّٰه غالب على أمره، ومكره أقوى من مكر الماكرين...

لذلك فإنّ هذه الدعوات للتهجير القسري تكشف الوجه الحقيقيّ للحضارة الغربيّة المعاصرة، التي تتشدّق بحقوق الإنسان والقيم الديمقراطيّة في المحافل الدوليّة، بينما تمارس أبشع أنواع الجرائم ضد الإنسانيّة في الواقع، فنحن أمام ازدواجيّة مقيتة تفضح زيف الشعارات الإنسانيّة التي ترفعها هذه الحضارة....

فالحضارة الغربيّة المعاصرة، على الرّغم من تقدّمها التّقنيّ وتطوّرها المؤسسيّ، لم تنجُ من هذا المرض الروحيّ المتجذّر في النّفوس، وإنّما استفحل فيها باضّطراد نتيجة ما تملكه من أدواتها المتطوّرة التي جعلت هذا المرض أكثر خطراً وأوسع انتشاراً، فالهيمنة اليوم لا تُمارس بالقوّة العسكريّة وحسب، إنّما بالاقتصاد والثّقافة والعولمة الفكريّة والإعلام الموجّه والتقنيّة والسياسة والدبلوماسيّة المزيّفة وغيرها من أدوات الهيمنة الخفيّة التي حوّلت المرض من جنون العظمة والقوّة، إلى مستويات النّرجسيّة ومركزيّة الأنا.....

ففي مشهد يُعيد إنتاج آليّات الهيمنة بأساليب أكثر تطوراً وخداعاً، تضخّ الدّول الغربيّة مليارات الدولارات في آلة إعلاميّة هدفها الأسمى تحقيق التّضليل المنهجيّ وتزييف الحقائق، فهذا الكيان الإعلاميّ المتطوّر يعمل على مدار الساعة لتبييض جرائم الحرب الفظيعة التي ترتكبها حلفاؤها، وتحويل الجلاّدين إلى ضحايا، والمعتدين إلى مدافعين عن النفس، وهذا التّلاعب الإعلاميّ ليس مجرّد دعاية سياسيّة، إنّما هو سلاح فتّاك يستهدف الوعي الجمعيّ للإنسانيّة، ويهدف إلى قلب الحقائق رأساً على عقب، فالنّهب المنظّم لثروات الدّول يُقدّم كـشراكة تنموية، والتدخّل العسكريّ يُسوّق باسم نشر الديمقراطيّة، والحصار الاقتصاديّ يُبرّر بـمحاربة الإرهاب...

فهذه الآلة الإعلاميّة المدمّرة تعمل على تشويه الضمير الأخلاقي للبشرية، وتخدير الرأي العام العالمي أمام المجازر الجماعيّة التي تُرتكب باسم القيم الغربية، فهي بذلك تمارس نوعاً من الاغتصاب الفكري الجماعيّ، إذ تقوم بتشويه الوقائع التاريخية لتخدم أجندة الهيمنة الغربيّة، وهذا التلاعب الإعلامي المنهجيّ يكشف عن طبيعة الحضارة الغربية المعاصرة التي تقوم على الخداع والمكر، وتستخدم الوسائل المتاحة كلّها لإخفاء وجهها القبيح، فهي حضارة تخشى المواجهة الأخلاقيّة الصريحة، لذا تلجأ إلى التلاعب والتضليل لتبرير جرائمها وعدوانها.

فالنّرجسيّة الفرديّة قد تحوّلت إلى معيار حضاريّ يتصدّر مشاهد الرّيادة والسّيادة الآن، فغدا الاحترام والتمجيد والتّقدير والاستثمارات تقدّم لهذه الدول النّرجسيّة، ممّا يزيد من طغيانها وجبروتها وعدوانيّتها،

فتصبح عاجزة عن رؤية الحكمة والجمال والخير في الأمم الأخرى، ولا ترى فيها – من خلال منظورها الخاصّ القاصر- سوى عوائق يجب إزالتها أو أهداف يستوجب احتلالها ثقافيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً، ويزداد بذلك سقوطها وانحدارها نحو هوّة لا قرار لها من الإنحلال الأخلاقيّ، الذي يصاحبه سيادة مبدأ العدالة الانتقائيّة وتطبيق المعايير المزدوجة للقيم، والتلاعب بها باعتبارها أدوات سياسيّة، فالعدالة وحقوق الإنسان والديمقراطية تتحوّل إلى شعارات برّاقة تُرفع حين تخدم المصالح وتُداس مهوى القدم وقتما تتعارض معها...

وهذا التّلاعب لا يدمّر مصداقيّة هذه القيم في عيون الآخرين فحسب، إنّما يدمّر الضمير الأخلاقيّ للحضارة نفسها، فحين تصبح القيم مجرّد أدوات، ستفقد قوّتها التوجيهيّة والإلهاميّة، وستتحوّل إلى كلمات زائفة جوفاء، تُبعث فارغة وتصل هامدة...

والمعايير المزدوجة ليست سياسة اعتباطيّة خاطئة وحسب، إنّما هي سياسة ممنهجة مرسومة ومقصودة، فهي تعكس انفصالاً خطيراً بين القول والفعل، وبين المبادئ المعلنة والممارسات الفعليّة، وهذا الانفصال يخلق تشويهاً في الرؤية الأخلاقيّة للعالم، فيصبح كلّ شيء نسبيّاً ومبرراً وفقاً للمصلحة المرجوّة....

هذا ويرافق ذلك الانحطاط الأخلاقيّ تشويه لمفاهيم خطيرة سائدة، كمفهوم السّلام، الذي تحوّل من كونه الملاذ الأخير للدّفاع عن الحقّ، لنوع من أنواع الصّناعات بما يفرزه نقيضه – الحرب – الذي غدا محوراً من محاور الاقتصاد، ففي الحروب النقيضين؛ الموت والحياة، موت الأبرياء تحت ويلات الحروب، وحياة ومصدر دخل مشوّه، ووسيلة ربح ملطّخة بالدّماء، وتحفيز للاقتصاد، وهذا التحوّل في المفهوم جعلنا نرى السّلام – للأسف- تهديداً للمصالح الاقتصاديّة، ونرى في الصّراع ضرورة أيدولوجيّة، فتصبح بذلك آلات الحروب مصدراً بديلاً للدّخل لدى تلك الدّول النّرجسيّة، ويصبح المشهد المعتاد في حياة الحضارات الغربيّة الحرب والدّمار، فنراها قابعة تحت أسر آلة الحرب التي صنعتها البشريّة، وتصبح عاجزة عن التوقّف لكونه يعني انهيار جزء كبير من اقتصادها...

ومقابل تلك الحضارات العاتية، تظهر مجتمعات مسالمة، تقبع كرهاً أو طواعية تحت ثقافة الخوف من العدوّ الداخليّ والخارجيّ، وهذا الخوف ليس بالأمر المحبّب أو من منطلق الحيطة والحذر، بل هو خوف يشلّ حركتها ويدفعها للتّنازل عن حريّتها مقابل منحها شعوراً زائفاً بأمان وهميّ من جهة، ومن جهة أخرى هو خوف مصطنع يُستخدم لتبرير سياسات القمع الداخلي والعدوان الخارجيّ، ومن جهة ثالثة فهو خوف يدفع المجتمعات للانعزال والتفكّك أمام سطوة تلك النرجسيّة

المفرطة لتلك الحضارات، فيعمل على تفكيك روابط المجتمع وتقسيم وشائجه، وتدمير البنى النفسيّة والروحيّة لشعوبه، ممّا يجعله لقمة سائغة وهدفاً سهلاً لمآرب الآخر...

فأنّى لنا بالخلاص من سطوة النّرجسيّة المفرطة لبعض الحضارات والدّول، والعمل على استعادة البوصلة الأخلاقيّة؟ والتّخلص من الوصمة الجبانة لدى أغلب المجتمعات؟

إنّ أولى خطوات هذا الخلاص المنشود، تكمن في التوبة الحضاريّة، والاعتراف بالخطأ وما اقترفته هذه الشّعوب من ظلم بحقّ ذاتها، ومن ثمّ تعهّدها بتغيير الوضع الماثل، وهذا يستدعي وجود شجاعة وحكمة للنّظر في المرآة دون مواربة، والاعتراف بأنّ القوّة لا تبرّر الظّلم، وأنّ التّقدّم التقنيّ لا يعني بالضّرورة التّقدّم القيميّ والأخلاقيّ...

ومن ثمّ فقد استوجب القيام بإعادة تعريف القوة، بوضعها في نصابها الصحيح، فالقوّة ليست السيطرة والهيمنة، إنّما القدرة على العطاء والخدمة، فالحضارة القويّة حقاً هي التي تُستذكر لما قدّمته للإنسانيّة، لا لما استولت عليه منها....

فضلاً عن ضرورة العمل على استعادة المعنى، من خلال البحث عن الغاية العليا للحياة، فالإنسان لا يمكن أنْ يعيش بلا معنى، لكونه الوقود الذي يحرّك الروح الإنسانيّة ويمنحها القدرة على التحمّل والإبداع والنموّ، ويمكن استعادة هذا المعنى بإعادة الاعتبار للقيم الإنسانيّة العليا، كالعدل، الرحمة، الحكمة والمحبة، لكونها تتجاوز فكرة القيم والمثل المجرّدة لتصبح قوى بناء للمجتمعات الإنسانيّة المثلى...

ناهيك عن حتميّة تفعيل لغة الحوار بدلاً من سطوة الهيمنة، فالحضارات تحتاج للحوار فيما بينها، وليس لهيمنة إحداها على الأخرى، فالحوار الحضاريّ الحقيقيّ يفرض احتراماً متبادلاً واعترافاً بأنّ كلّ حضارة لها ما تقدّمه وما تتعلّمه، فهذا الحوار لن ينطلق من قاعدة السعي نحو تبادل للمعلومات، إنّما من منطلق الرغبة بإحداث تفاعل خلاّق يمكن أنْ يولّد حلولاً جديدة للتحدّيات الإنسانيّة المشتركة...

وبعد،

ففي هذه اللحظة التاريخيّة الحرجة، تقف الإنسانيّة أمام مفترق طرق، فإمّا أنْ تسير في طريق الهيمنة والصراع والانحطاط الأخلاقيّ، وإمّا أنْ تقود الراحلة في طريق العدل والتنوّع والإنسانيّة، ولن يكون الاختيار ليس سهلاً، فهو يتطلّب تنازلات صعبة من أصحاب القوة والثروة والنّفوذ، لكونه حاجة ملحّة لبقاء الحضارة الإنسانيّة نفسها، فالحضارة التي تفقد ضميرها الأخلاقيّ محكومة بالزوال، مهما بلغت من قوة ماديّة، ولكنّ الأمل كلّ الأمل أنْ يُقدم الإنسان على التعلّم ويسعى لإحداث التّغيير، فيكون صوت ضميره هو الصّوت الأعلى الرّافض للظّلم والدّاعي للعدل، فهذه الأصوات، مهما بدت ضعيفة خافتة، فهي بذور التّغيير الحقيقيّ...

لذا، فلا مجال إلاّ أنْ تعيد الحضارة الإسلاميّة صناعة نفسها ليعمّ السّلام والأمن في العالم من منطلق الأخلاق والقيم التي بثّها الإسلام لتشمل نواحي الحياة بأكملها، فالمستقبل ليس محتوماً، فهو صناعة إنسانيّة، والتّاريخ لا يصنعه العظماء وحدهم، بل يصنعه كلّ شريف اختار الخير على الشرّ، والحقّ على الباطل، والعدل على الظّلم، فلم يستمرئ الطغيان مهما كان شكله...

ففي النهاية، تبقى كلمات الحقّ أقوى من كلّ طاغية مهما كان وأينما كان ومتى ما كان، وتبقى القيم الإنسانيّة النبيلة أدومُ من كلّ إمبراطوريّات الظّلم والجور....

فما كان للّٰه دام واتّصل، وما كان لغير اللّٰه انقطع واندثر....